

تنمية الشباب بين الأصالة والتجديد الدكتور إبراهيم الجعفري

مقدمة

للسباب تركيبة بيولوجية وسيكولوجية خاصة؛ وهذا الأمر يدفع باتجاه إبراز منظومات وبرامج خاصة تُعنى بمخاطبة هذه الشريحة، والولوج إلى عالمها بما يتلاءم والطبيعة الخاصة بها تكويناً: ((فطرة الله التي فطر الناس عليها)).

حتى أصبح عالم الشباب اليوم ميداناً تنبارى فيه دول العالم بمختلف أيديولوجياتها لتوجيه حركتهم حول أهدافها، أو حرفهم عن الجادة، أو اكتشاف مواهب أبنائها المبدعة في تلك المرحلة المبكرة، وتحصين مناعتها ضد آفة التلقي السلبي التي تكاد تهيمن على منظومة تعليمنا.

في حقيقة الأمر وبعيداً عن الشعارات البراقة، فإن جيلنا يعاني من فراغ فكري، وضعف ثقافي يجسده بوضوح بحالة التلقي الجمعي غير الموجّه، وإذا أردنا معرفة المصدر المسؤول عن تدني المستوى الثقافي، وعدم نمو مجال التقدم في مجتمعاتنا فإننا سنصطدم بمجموعة عوامل مترابطة ومتشعبة، يبرز منها سوء استغلال تلك القدرات، وعدم تنميتها، فكما أن ثقافة الفرد وأيديولوجيته تتكون نتيجة عوامل متراكمة وظروف متباينة، وخبرات متعددة، فإن عملية تنمية الشباب من حيث التكوين والانطلاق الثقافي أعقد من ذلك.

وإذا كنا في عصرنا نؤمن بأن تحديث أي مجتمع لا ينطلق من التطورات التكنولوجية، بقدر ما ينطلق من القدرة على تكوين مجموعة من المؤسسات الثقافية والإعلامية التي تمتلك أدوات تعزيز واستمرار التحديث والتجديد والتنمية، وقد اضطلعت بتلك المهمة مؤسسة الكتاب الثقافية إدراكاً منها أن نظام العصر بات يفرض التخطيط المرتبط بفلسفة التربية والثقافة؛ لتعزيز مهارات التفكير الإبداعي القائم على تجديد الأدوات الإدراكية والمعرفية، وبما يحقق الاستقلال الذاتي لأجيال المستقبل في تشكيل تصوراتهم، باقتدار ونقد وأصالة، واستيعاب لقواعد التفاعل الإيجابي الخلاق مع تجليات التقدم العلمي والتقنيات وحقائق العصر.

وتقوم مؤسسة الكتاب الثقافية بنشر هذا الكتاب على أمل أن يكون نقطة ضوء في طريق التخطيط المستقبلي للتعليم والتأهيل، وتعزيز منهجية بناء القدرات المتميزة بتفكير إبداعي.

تنمية الشباب بين الأصالة والتجديد

الدكتور إبراهيم الجعفري

- أهمية الموضوع
 - التحولات التكوينية التي تعترى الشاب
 - نظرة علم النفس الحديث
 - الرقابة الشرعية في حياة الشباب
 - التعاطي العُرفي في حركة الشباب
- ماذا نريد بـ (التنمية)؟
 - كيف نفهم (الأصالة)؟
 - وهل الإسلام مع التجديد؟
- علاقة الأصالة بالتجديد
 - (وعي الأصالة) و (وعي التجديد)
 - قيمة (الأصالة) في حياة الشباب
 - (النزعة التجديدية) وتأكيدها على الأصالة
- نماذج من مسائل (الأصالة والتجديد)
 - إثبات الحقيقة وقيمة الاستدلال.
 - (كرامة الإنسان) والشعارات المعاصرة.
 - قياس التفاضل.
 - التعامل مع المرأة – الشمول – التمييز.
 - العلاقة الزوجية – الأساس والمخاطر.
 - (تعاطي المُسكر) الحقيقة الشرعية والمؤشرات العلمية.
- أهمية التنمية في مرحلة الشباب
 - منهج التنمية عند الشباب.
 - ثقافة التنمية في مرحلة الشباب.
 - و عي الوسط الاجتماعي.
 - ثقافة الدفاع.
 - ثقافة التبليغ والدعوة.
- الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(تنمية الشباب بين الأصالة والتجديد)

((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)).(1)

يكتسب الحديث التربوي حول الشباب أهمية خاصة؛ لأنه يستهدف بناء الشخصية. وهي في مرحلة التحول الأساس، الذي يتميز بأنه متعدد في عناصره المكونة لذلك التحول كما أنه ذو انعطافة حادة في غير السياق التغييري الذي درج الشاب عليه في مرحلة ما قبل المراهقة والشباب. وحتى يختلف - عموماً - من حيث الحدة عما يعترى شخصيته في المرحلة التي تلي الشباب.

فعلى المستوى العقلي ينتقل من مؤمن بكل حقيقة إلى مستفسر عن أدلة إثباتها.. من مجتر، ومكرّر للاهتمامات العقائدية والفكرية التي تطرحها عليه الأسرة والآخرين إلى مولد ذاتي للأسئلة التلقائية التي تدور في خلد..

ومن الناحية النفسية يتحول من حالة الانفعال الذاتي (السلبى) إلى الانفعال البنّاء.. من حالة الانكفاء على الذات إلى حالة المواجهة.. من عدم الاهتمام بالآخرين إلى محاولة فهمهم، والتعامل معهم.. من غاطس في واقع حاضره إلى متطلع نحو آفاق مستقبله.. وعلى مستوى الأسرة من الانصياع لإرادة الوالدين إلى الانضباط الذاتي.. من التلقي من الوالدين إلى التعاطي معهم كأصدقاء.. من الشعور الفردي اللامسؤول إلى الإحساس بالمسؤولية تجاه الأسرة.. من النظرة الأحادية المستوحاة من الأسرة في تقييم أفرادها إلى النظرة الموضوعية المنفتحة على المجتمع في التقييم.. من مستوى التزمّت في العلاقة إلى مستوى التعايش.. من مستوى التطرف في القبول المطلق أو الرفض المطلق للمعطيات الاجتماعية إلى الفرز القيمي والقبول الانتقائي.. من عدم مراعاة الجانب الاجتماعي إلى احترام العُرف.. من الاهتمام السطحي إلى محاولة التعمّق ووعي الحقيقة.. من اللامبالاة إلى الشعور بالمسؤولية.. إضافة إلى تحولات أخرى ليست أقل أهمية من هذه أن لم تضاهها، أو تفقها أحياناً مثل ما تعثره من وضع غريزي جنسي ضاغط، نزعه الاستقلالية ورفضه للحالة التبعية، تطلعه للتخصص وتحديد مساره المهني والعلمي، تفكيره وتخطيطه للعلاقة الزوجية.. هذه مجمل التغيرات التي يتعرض لها الشباب وبصورة غالبية، وليست قطعية بكل مفرداتها. (1)

إن مثل هذه الانعطافة حملت الكثير من علماء النفس على تفسير المراهقة بأنها حالة غير طبيعية. فقد وصف جرنر Grinder حياة المراهق بأنها (مجموعة تناقضات)، أما بيكوناس والبرشت Pikunas and Albrecht فقد ذهبوا إلى أن المراهق (يشعر بالضيق إلى أن يصل إلى مرحلة النضج). (2) أما فرويد وستانلي هول فهما يفسران مرحلة المراهقة بأنها (مرحلة الجَيْشان الانفعالي، والتناقضات السلوكية، وهي عُرضة بوجه خاص للنكوص والارتداد والكثير من الأمراض النفسية). (3) هذه العوامل الذاتية بالتغير في شخصية الشاب تضيف الأهمية على مثل هذا الموضوع إضافة إلى عوامل أخرى منها شرعية وأخرى عرفية تصبّ بالاتجاه نفسه، فالشريعة المقدسة تتعامل مع الشاب على أنه مكلف ومسؤول عن

-
- (1) بعض هذه التغيرات مع الاختلاف في وجهة النظر وردّها كل من Call and Hall.
 - (2) علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) ص 292.
 - (3) المراهق دراسة سيكولوجية ص 28.

كل تصرف من تصرفاته وإنه عرضة للحساب في كل عمل حرام، وأفردت مجموعة كبيرة من الأحكام الشرعية التي تتناول شخصية الشاب في أوجه متعددة: عبادته، تعامله مع أبويه، حقه ومسؤوليته في الزواج، طلبه للعلم، خوضه لمجالات التكسب، علاقاته بالآخرين، انخراطه في الاتجاه السياسي... وبذلك دخلت الشريعة على شكل رقابة في حياة الشباب سواء مُرست هذه الرقابة من قبله، ونبعت من داخله أم إنها اتخذت صفة موضوعية مُرست عليه من خارجه.

أما الجانب العرفي فقد تحرك هو الآخر على صعيدين في عالم الشاب، الصعيد الأول: الحس الاجتماعي الذي لديه وما يمنحه ذلك من رصيد يتناغم مع رغبته النامية، ويتفاعل مع قناعاته بشكل يجعله جزءاً من الواقع الاجتماعي الذي يحيط به، ويشترك معه في المتطلبات والأهداف والمعايير.

والصعيد الثاني: هو دخول المجتمع كعنصر تقييد لحركة الشاب، وحمله على ضرورة مراعاة اللياقات الاجتماعية خصوصاً أن الشريعة المقدسة راعت بعضها، وحملت الشاب على أخذها بنظر الاعتبار: (من وضع نفسه في موضع التهمة فلا يلومنّ إلا نفسه).

فهو قبل هذه المرحلة كان يفكر بالجائز والحرام من وحي الرقابة الشرعية (المسموح الشرعي)، كما يفكر في حدود ما سمحت به الشريعة، كذلك (المألوف العرفي)؛ لأن الرقابة العرفية هي الأخرى أخذت تلاحق مسيرته وهو في مرحلة الشباب، لا كما كان عليه في مرحلة الطفولة وحتى الصبا.

تحديد المفردات والمقصود منها:

ما هي (التنمية)، وما هي (الأصالة)؟ وما هو (التجديد)؟

- التنمية: لا نريد بالتنمية معنى التقادم الزمني المجرد الذي يجعل الشاب في الثلاثينيات أكبر من الشاب في العشرينيات بسبب فارق العمر فقط، كما لا نريد به الفرق الحيوي (البايولوجي) من حيث زيادة الوزن، وارتفاع القامة، وتكامل أعضاء جسمه، ولا نريد بالتنمية الفارق والنمو العلمي والثقافي المجرد، مهما كانت طبيعة تلك العلوم.

كما لا نريد كذلك بمفهوم التنمية الفارق الذي يحدث في نمو الشباب بين زمن وآخر جراء تحليته الظاهري بصفات معينة، واعتياده على ممارسات ما، ومراعاته للياقات إضافية لم يكن قد تحلى بها أو راعاها سابقاً، بحيث تكون العملية أشبه ما تكون بوضع اللبنة لإقامة جدار عال من دون أن يكون ثمة ترابط مشترك بين هذه الوحدات البنائية أو أي تفاعل فيما بينها.

إنما نريد بـ (التنمية) (1) أنها عملية (التربية)، أو عملية (التغيير) وهذه العملية تتطلب أن يتزود الشاب بالفكر، ويحوّل ذلك الفكر إلى ممارسة؛ وبذلك يحدث في نفسه اطردات بالنمو من خلال سلوكه الفردي والاجتماعي، فيكون بذلك تقادم الزمن، أو تحصيله الثقافي، أو بناؤه البدني والاجتماعي عوامل يمكن أن تصبّ في إثراء مسيرته التربوية، وهذا هو باختصار ما نريده بمفهوم (التنمية).

(1) نَمَى: تنمى الشيء، جعله نامياً، المنجد ص ص (29-840).

ونَمِيَ: النماء: الزيادة، والأشياء كلها على وجه الأرض نام وصامت، فالنامي مثل النبات والشجر ونحوه، والصامت كالحجر والجبل ونحوه.

ونَمَى الحديث ينمى: ارتفع، ونمّيته: رفعته.

وأنمّيته: أذعته على وجه النميّة، وقيل نمّيته، مشدداً، أسديته ورفعته، ونمّيته، مشدداً أيضاً: بلغته على جهة النميّة، والإشاعة، والصحيح أن نمّيته رفعته على وجه الإصلاح، ابن منظور، لسان العرب، ج15، ص 341.

- الأصالة: من الناس من يتخذ من (القدم) أصلاً له بالتعامل والتقييم فيفهم الأصالة (1) بأنها التمسك بالقديم لقدمه، فهو حين ينظر إلى القديم، وقد انحدر عبر أجداده وآبائه ليصل إليه لا يقوى على تجاوزه، ولا يتصور أن يرقى إلى قداسة ذلك الأصل مقدس آخر (أصالة القدم).

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الشريحة من الناس في أكثر من آية شريفة: ((وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ)) (2). ((بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ)) (3).

فقد كان موقف هذه الشريحة الاجتماعية سلبياً من كل تغيير؛ لأنه من وجهة نظرها يمس المقدس (أصالة القدم)، فحاربت كل جديد، وتحفظت عليه وفاءً لذلك (المقدس)،

ومن الناس من يعتقد أن الأصالة هي الانطلاق من الذات في أفقها الفردي الخاص أو الاجتماعي في مداه الأوسع، وبذلك يختنق (الذاتي) في أفق فرديته، أو مجتمعه من دون أن يفتح على الإنسان الآخر عملاً بـ (أصالة الذات)، ودفاعاً عن قداساتها (قداسة الذات)، وهذا معناه أن الذاتي هنا تحول إلى مطلق ومقياس يريد لنفسه أن يتحكم بالآخرين، ويفرض هيمنته عليهم حتى تصل نزعة التسلط هذه إلى مداها الجنوني بالشعور بالعظمة بحيث يدعي (الربوبية) كما حصل لفرعون: ((فقال أنا ربكم الأعلى)) (4).

((قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم)) (5).

ومنهم من لم يقلها بلسانه (عقدة الربوبية) لكنه تعامل على أساسها بنفس طاغوتي فيريد أن يأمر فيطاع، ويفعل ما يشاء هو ولا يفعل ما يشاء غيره. إذن (الذاتي الاجتماعي) أو (الذاتي العنصري) ينطلق من مجتمعه أو عنصره بكل ما يرتبط به من أفكار وعادات وتقاليد، ولا يفتح على الإنسان الآخر؛ لأنه من غير مجتمعه ومن غير عنصره وهذا ما يعمق لديه الحسّ العنصري الذي جعله هو (الأصالة).

(1) الأصالة / الأصل: أسفل كل شيء وجمعه أصول... ورجل أصيل: له

أصل. ورأي أصيل: له أصل. ورجل أصيل ثابت الرأي عاقل.

وقد أصل أصالة، مثل ضخم ضخامة، وفلان أصيل الرأي وقد أصل

رأيه أصالة، وانه لأصيل الرأي والعقل، ومجد أصيل أي ذو أصالة، ابن

منظور لسان العرب ج 11 ص 16.

(2) الزخرف 23

(3) الزخرف 22

(4) النازعات 24

والأصالة عند نمط ثالث من الناس تتبع من فكر منغلق يتوجس من الفكر الآخر، ولا يقوى على مواجهته؛ فيرفضه جملة وتفصيلاً، ومثل هذا النمط من الناس يفتقر لوعي الآخر؛ كي يقف من موقع الوعي على نقاط القوة والضعف، ونقاط الاتفاق والاختلاف، إن غياب هذا الوعي (وعي المشترك)، يحول دون رؤية الحقيقة عند الآخرين مهما كان لديهم من مكارم، والجامع لمثل هذه المصاديق هو غياب المفهوم الإسلامي للأصالة، فلا (القدم) بذاته أصل إسلامي، ولا (الذاتي الفردي)، أو (الذاتي الاجتماعي)، أو (الذاتي العنصري) هي الأخرى أصول إسلامية، ولا (الانغلاق اللاواعي) كذلك أصل إسلامي.

إذن ما هي الأصالة؟

إنها تعني تحديد أصل كل شيء، وإرجاع الشيء إلى ذلك الأصل، وحين نتحدث عن (الأصالة الإسلامية) فإننا ننطلق من الآية الكريمة: ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)) (1).

ف قيل المراد بالكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وقيل: الإيمان، وقيل: القرآن، وقيل: مطلق التسبيح والتنزيه، وقيل: الثناء على الله مطلقاً، وقيل: كلمة حسنة، وقيل: جميع الطاعات، وقيل: المؤمن. (2) والذي يعطيه التدبر في الآيات، أي: المراد بالكلمة الطيبة والتي شُبِّهَتْ بشجرة طيبة من صفتها كذا وكذا هو الاعتقاد، فإنه تعالى يقول بعد وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل: ((يُنَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)). (3)

القول هو الكلمة، ولا كل كلمة من حيث هي لفظ، بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان، ولا يزيغ عنه، وقد تعرض الله (سبحانه وتعالى)، لما يقرب من هذا المعنى في مواضع من كلامه: ((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)). (4) ((إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)). (5)

(1) إبراهيم 24

(2) السيد محمد حسين الطباطبائي الميزان ج 12 ص 51

(3) إبراهيم 27

وهذا القول (الكلمة الطيبة) هو الذي يرتب الله (عز وجل) عليه تثبيتته في الدنيا والآخرة أصله وهم الذين آمنوا، ثم يقابله باحتلال الظالمين، ويقابله بوجه آخر بشأن المشركين، وبهذا يظهر أن المراد بالممثل هو كلمة التوحيد وشهادة إلا إله إلا الله حق شهادته.... (1) وكذلك كل كلمة حق، وكل عمل صالح مثله هو المثل، له أصل ثابت وفروع رشيدة، وثمرات طيبة مفيدة نافعة.

فالمثل المذكور في الآية يجري في الجميع كما يؤيده التعبير بكلمة طيبة بلفظ الفكرة غير أن المراد في الآية على ما يعطيه السياق هو أصل التوحيد الذي يتفرغ عليه سائر الاعتقادات الحقّة، وتنمو عليه الأخلاق الزاكية، وتنشأ منه (الأعمال الصالحة). (2)

الأصالة الإسلامية بناءً على هذا الفهم القرآني هي: التوحيد كأصل تتفرع عنه سائر الاعتقادات، وهو ذات الأصل الذي يمدّ الأخلاق بالنمو كما تركز عليه الأعمال، من هنا احتل التوحيد موقعاً خاصاً في العقيدة الإسلامية، وما لم تتحرك القيم في إطار التوحيد، وما لم يكن السلوك انعكاساً للتوحيد فقد كل ذلك عنصر (الأصالة الإسلامية) والأصالة الإسلامية بهذا المعنى أكد عليها الأنبياء والمرسلون (عليهم السلام)، وهي لذلك ليست وفقاً على قومية دون أخرى، أو حبيسة أرض معينة، أو رهينة مقطع زمني دون آخر.

(الأصالة الإسلامية) مثلت إذن نقطة الارتكاز المعنوي من جانب، وقاعدة التفكير وتحديد المفاهيم والأحكام من الجانب الثاني، والدالة السلطوية التي تتحكم في مسار الإنسان في مختلف الظروف والأحوال من الجانب الثالث، وعليه تتفرع عملية التقويم حين نلمس تفكيراً أصيلاً أو مفهوماً أصيلاً، أو قيمة أصيلة، أو سلوكاً أصيلاً في مجال الفكر والممارسة، ونشعر أنها قامت على نقطة الارتكاز تلك، ومن وحي هذا المفهوم (الأصالة الإسلامية)، نتناول حادثة صلاة المسلمين بداية ظهور الإسلام تجاه بيت المقدس، ثم تحولت القبلة إلى الكعبة، إن هذه الحادثة تثير سؤالاً كبيراً وهو: لماذا لم يؤمر المسلمون ابتداءً بالصلاة تجاهها؟

إن الكعبة هي الكعبة قبل الصلاة تجاهها وبعدها غير أن الجديد الذي حصل هو إن الكعبة مثلت عمقاً نفسياً عند العرب؛ لأنها تعبر عن الامتداد القومي من جانب، ولأنها موضع الأصنام التي كانت تتقرب لها العرب قبل الإسلام زُلفى من دون الله. إن مثل هذه الحالة التي انطوت على (المقدس القومي) و(الأصالة القومية) و(المقدس الوثني) و(أصالة الشرك) لا يمكن أن يتم التعامل معها من دون تثبيت أصل آخر، وإن اقتضى التعامل مع ذات المكان وذات الجهة، من هنا نهى الله (تبارك وتعالى)، المسلمين كلياً عن (عقدة التاريخ)، وتحرروا من (العقدة القومية).

- (1) السيد محمد حسين الطباطبائي ج12، ص 51
(2) نفس المصدر السابق، ص 52

ثم يأتي النداء الرباني الذي ألغى هذا (الأصل القومي)، وثبت (الأصل الإسلامي) المستوحى من العقيدة:
(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)) (1).

كما إن إعلان القبلة الأولى، فصل الإسلام عن الطابع القومي، وأسقط الأصنام المتواجدة في الكعبة (2)، وقد يقابل كلمة (الأصالة) (الزيف) (3)، فمثلما نقول: إنسان أصيل، وسلوك أصيل، وفكر أصيل، نقول: إنسان زائف، وسلوك زائف، وفكر زائف، المقابلة الصحيحة إذن بين الأصالة والزيف، وليس بين الأصالة والتجديد، كما سنوضح ذلك بإذنه تعالى.

(1) البقرة 144

- (2) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل م1، ص 347
(3) الزيف: في وصف الدراهم، يقال: زافت عليه دراهمه، أي: صارت مردودة لغشّ فيها، وقد زيفت إذا ردت، زاف الدرهم فهو زائف، ابن منظور لسان العرب، ص 142.

- التجديد: مثلما تفاوتت وجهات النظر حول (التنمية) و(الأصالة)، كذلك تفاوتت حول (التجديد)(1) فالبعض فهم (التجديد) بأنه الحديث بلغة اليوم، والتفكير بعقلية اليوم، ومادمت مرتبطاً بالماضي فأنت لست مجدداً، ومادمت تأبى تناول المصطلح المعاصر بما له من بريق وجاذبية، ومادمت تطرح الفكرة بأسلوب لا يعتمد الطرق الحديثة من الاستعارات التجديدية المعقدة إذن أنت لست مجدداً، فإذا كانت للتجديد سمات فإن من نفس سماته (غرابية المصطلح) و(تعقيد الفكرة) و(التواء الأسلوب).
وبالعوض الآخر اعتبر التجديد بأنه: المدنية بكل ما تحمل في أشواطها المعاصرة من إرهاصات علمية، واكتشافات، وفنون، وقدرات اقتصادية، واختراعات، وتطوير في طرق العيش، ومن ثم فإن من دواعي التجديد أن نتطلع إلى (المتفوق المدني)، ونترسم خطاه، ونقتفي آثاره، ومثل هذه النظرة (نظرة الانبهار) تعمي الأبصار عن كل المساوئ التي مُنيت بها مجتمعات الغرب التي تفوّقت مديناً لكنها تراجعت من الناحية الأخلاقية والسلوكية.

وتتوافق مع هذه النظرة نظرة أخرى لكل التاريخ والتراث (نظرة دونية)، وتخجل من استلهاهم أي فكرة أو قيمة مهما عظمت؛ لأنها تفتقر إلى أفق التقدم الصناعي والاقتصادي الذي تستطيع أن تتحرك فيه.

آخرون اعتبروا (التجديد) من استحقاقات سيطرة القوة، وسيادة القوي سياسياً، أو عسكرياً، فالقيمة تتبدل بتبدل ميزان القوى، ولما كان عالم اليوم تسوده قوى الغرب بما لها من إمكانات مادية وعسكرية، وادعاءات سياسية عريضة فإن التعاطي مع هذا الواقع هو التجديد بعينه، وإن الانشداد إلى الخلف والإصرار على إحيائه ضرب من اللاواقعية؛ لأنه لا يقوى على تجميد الحاضر مثلما لا يستطيع أن يحرك الماضي.

(1) الجدة: نقيض البلى، يقال: شيء جديد، والجمع أجدةً وجددٌ وجدد... وأصل كذلك كلمة القطع، فأما ما جاء فيه في غير ما يقل القطع فصلى المثل بذلك كقولهم: جدد الوضوء والعهد، ويقال كبر فلان ثم أصاب فرحة وسروراً فجد جده كأنه صار جديداً، والجديد: ما لا عهد لك به، ولذلك وُصف الموت بالجديد، ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص111.

(التجديد) يعني التعامل مع المتغير على أساس ما يفرزه من نتائج ومبررات موضوعية مطابقة للحقيقة الثابتة التي ينطلق منها الإنسان، أي إن التجديد بمفهومه الصحيح هو التأكيد على الأصالة وليس نقيضاً لها، وربما يقف التجديد مقابل التجميد (1) لأن الأول يستهدف التعامل مع المتغير بموضوعيته، والثاني يكون عائقاً أمام حركته.

(1) جمد: الجمد، بالتحريك للماء الجامد... جمد الماء والدم وغيرهما من السوائل يجمد جموداً وجمداً أي قام، وكذلك الدم وغيره إذا يبس، سنة جامدة لا كلاً فيها ولا خصب ولا مطر، وناقة جماد: لا لبن لها، وفيه حديث محمد بن عمران التميمي: إنا والله ما نجمد عند الحق ولا نتدفق عن الباطل، حكاه ابن العربي، وهو جامد إذا بخل بما يلزمه من الحق والجامد: البخيل، ابن منظور لسان العرب، م3، ص 130.

- علاقة الأصالة بالتجديد: عودة إلى جو الآية الكريمة:

((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا)).

((أصلها ثابت))

إنها الأصالة الإسلامية التي لا تتبدل؛ لأنها تعبر عن الحقيقة المطلقة، وهي التوحيد وما يترتب عليه من لواحق إيمانية، إن هذا الأصل مدّ فروعه في حياة الإنسان، وأعطى لكل عصر حصة من العطاء الزاخر، هناك عطاء:

((أكلها))

وهناك امتداد زمني (تجديد):

((كل حين))

وهناك ترابط عضوي بين الأصل والفرع، أي: بين الأصالة والتجديد:

((بإذن ربها))

مثلما ينطلق الإنسان المؤمن من قاعدة التوحيد في الحياة ليرسم مساره، ويحدد سلوكه، ومثلما يتطلع إلى العطاء المتدفق على مستوى التجديد المرتقب، كذلك يفترض عليه أن يحقق هذا الارتباط والوصول إلى كل ألوان العطاء الزاخر، من خلال نفس الروح الإيمانية التي تبقى مفتحة على العقيدة التي انطلقت منها لتواصل شوطها مع كل جديد، وتحدد موقفها وفق المعيار الإيماني نفس بالرفض والقبول.

لقد حث الإسلام المؤمنين على الانفتاح المتجدد مع كل بادرة، واستثمار كل مناسبة من أجل الوصول إلى الحقيقة (الأصالة)، إن تأكيد القرآن الكريم على طلب العلم:

((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)). (1)

((قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)). (2)

((إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)). (3)

إنما هو تأكيد على الوصول من خلال المستجد الذي يكشفه العلم في إطار الإيمان إلى تأكيد الأصل التوحيدي وما يترتب عليه، كذلك الروايات الشريفة:

(اطلب العلم ولو في الصين)(1)

(طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة)(2)

إنه الانفتاح على الواقع من قبل كل المسلمين، فلا انغلاق ولا محدودية على البعض دون البعض الآخر، بل النظر إلى الحكمة على أنها ضالة لا بد من البحث عنها ومعرفتها، فقد جاء في الحديث الشريف:

(الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق)(3)

لقد ركز الإسلام على الشباب بالذات في طلب العلم:

(إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء إلا قبلته)(4)

(التعلم في الصغر كالنقش في الحجر)(5)

لما كان العلم في بعض مجالاته انفتاحاً على المتجدد، وما يحمل من حقائق فإن إكرام العلم والعلماء وطلاب العلم معناه مواكبة الجديد والوقوف عليه، فلا تعارض، ولا تنافي بين الأصيل والجديد، ولا مفر من التعامل على أساس (الأصالة والتجديد) معاً.

(1) الشيخ المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 180

(2) الشيخ المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 177

(3) الشيخ المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 177

(4) الشيخ المجلسي، بحار الأنوار، ج 77، ص 201

(5) الشيخ المجلسي، بحار الأنوار، ج 1، ص 224

- وعي الأصالة ووعي التجديد:

نريد بالوعي تمييز مفهوم الأصالة عن كل ما يحيطه من شبهة لا ترتبط بالأصالة بصلة من جانب، وكذلك التجديد، ومن الجانب الآخر النظرة المتكاملة إلى كل من الأصالة والتجديد على أنهما متكاملان، فلا أصالة مع الانكفاء والانغلاق على الجديد، ولا تجديد مع الانقطاع عن الأصالة.

إن ما أودعه الله (تبارك وتعالى) من حقائق في الكون، وما أمر من استخدام العقل لاكتشافه وسبر غوره، لهو الرافد الأساس في البناء الحضاري الإسلامي، كما إن الثبات والقرار على المرتكز المعنوي الذي يمثل الأصالة، هو الهوية والعمق الحضاري.

فبمقدار ما ينطلق المؤمن من وعي (أصيل) يكون أكثر ثباتاً، وبمقدار ما ينطلق من وعي التجديد يكون أوسع أفقاً، وبهذين الوعيين - وعي الأصالة ووعي التجديد - يتم الحفاظ على صفة المبدئية والواقعية، وعندها لا معنى لأن يعاني المؤمن من حالة الازدواج في التحرك بين أن يكون أصيلاً أم مجدداً، مبدئياً أم واقعياً، كما لا معنى لأن نتصور حركة المؤمنين على أنهما ركبان، ركب (الأصالة) المنغلق وركب (التجديد) المنفتح، ركب الماضي والحاضر، ركب المتشدد والمتسامح، كلها تصبح مقولات لا أساس لها من الصحة.

- قيمة الأصالة في حياة الشباب:

حين يفتح الشاب على بيئة اجتماعية معينة بشكل عام، أو بيئة غريبة بشكل خاص، ومن أجل أن لا يتأثر ولو إلى حد ما بعادات ذلك المجتمع وتقاليده وأفكاره، بحيث يتزود على ضوء منهجه الفكري، والمعرفي، وأسلوبه الثقافي، فيقتضي أن يستقل بشكل كامل في جذوره الثقافية وقاعدته العقيدية، وإن كانت هذه البيئة تشكل خطراً على الكبير كذلك، غير أن الخطورة تبلغ أقصى مدى عند الشاب؛ لأنه لم يعيش (مجتمع الفكرة)، و(مجتمع العقيدة)، بل إنه يقرأ الفكرة، ويؤمن بالعقيدة من دون أن يصل إلى حد التعاطي بمفرداتها مع الآخرين ممن تربطهم وإياه رابطة العقيدة؛ لذا تراه يعيش أحياناً غربة في التعامل مع مصاديقها، ولنضرب على ذلك مثلاً الضيافة في الغرب أمر لا مبرر له، خصوصاً حين يقترن بالبذل والعطاء من دون مصلحة مادية معينة، وحين يدرج الشاب في مثل هذا العرف (اللاضيافة) تجده يقف متحيراً في تفسير البذل والعطاء المادي حين يقتضي الأمر ذلك، بينما حين يعيش مفهوم الضيافة المرتبط بالعقيدة:

(الضيف ينزل برزقه ويرتحل بذنوب أهل البيت)(1)

وحين يتعاطى هذا المفهوم في عرفه الإسلامي مع الآخرين، ويتعامل معه باستمرار تجده يتطلع لتطبيقه، ويستوحش في غياب قيم الضيافة في حياته. وحين ينطلق الشاب من موقع (وعي الأصالة) يستطيع أن يتميز الأصيل عن الزائف حتى إذا ادعى المزيفون أنهم يمثلون (الأصالة)، فكثرت مواقع الشباب تحت طائلة تأثير مثل هذه الدعاوى في محاولة لشدهم إلى ممارسات وتجمعات لا تمت إلى الأصالة بصلة، وهي إنما تكثر في وسط الشباب بالذات؛ لأن الكثير منهم قد لا تتوافر له الحصة الكافية من الوعي والثقافة لمعرفة هؤلاء وادعاءاتهم على حقيقتها، إضافة إلى أن بعض الشباب يندفع بقوة في مطلع شبابه ليتغير بهذه الدعاوى أو تلك ويضحي لهذه المجموعة أو لغيرها، خصوصاً إذا اكتست ثوب الدين والأصالة والتراث وما شاكل ذلك، فالشاب الواعي يدرك جيداً أن الأصالة في إحياء الشعائر مثلاً تقتضي التمسك بأحكام الشريعة والابتعاد عن كل ما يسيء لها من قريب أو بعيد، كما يدرك أيضاً أن الأصالة تقتضي التمحص بالإسلام والتشبع بمفاهيمه وأحكامه، ولكن ذلك لا يعني أنه يحبس الإسلام في دائرة، ويعزله عن دوائر الحياة الأخرى بذريعة (الأصالة).

- قيمة التجديد في حياة الشاب:

إن التجديد يعني مواكبة (الأصالة) على هدي المعطيات المعاصرة، وهذا يوفر للشباب حالة من النمو والكفاءة تؤهله لبناء شخصيته بناءً إسلامياً قوياً، كما يؤهله للإسهام في بناء أسرته وبلده على ضوء تلك المعطيات. إن البناء العقلي والنفسي يجعله يسابق الزمن، وينفتح بلا تردد على المستجدات وسواء كانت هذه المستجدات في مجال العلم، أو الفن، أو الرياضة، أو أي مجال من المجالات فإن نفسه تطاوعه لأن يتوافر عليها، مثلما حث الإسلام الآباء على دفع أولادهم في مثل هذه الميادين مادامت انطلاقتهم من موقع (الأصالة) فقد جاء في الحديث الشريف:

(لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خُلِقوا لزمان غير زمانكم)

المؤمن يسابق الزمن في كل شيء، ويبحث عن كل مفردة جديدة من موقع تأصيلها؛ وبذلك يمنح الجديد رصيد الأصالة مثلما يكسو الأصيل ثوب الجدة، ومن أروع ما يصل إليه المؤمن الشاب بالذات أنه يجد أن كل جديد يؤكد أصالة مبدئه، وأن كل أصيل في عقيدته ومتبنياته يعاصر حياته، ويتجدد مع مرور الزمن، إن ذلك يعمق فيه روح الثقة، ويمنحه زخماً كبيراً في البناء والحركة.

حين يتحرك المؤمن من موقع التجربة ينفث على الآفاق الحياتية، فيضفي على الإسلام بُعداً واقعياً، وجدارته على بناء الحياة على هدي أحكامه، كما يتعمق إيمانه بقدرة الإسلام على استثمار كل الفرص التي من شأنها رفع كلمة الإسلام

وإعادته إلى الواقع على المستويات المختلفة، كما إنه يستطيع أن يقف وبكل ثقة أمام الاتهامات التي تحاول أن توقف حركته بدعوى التخلف، والتطرف، واللاواقعية والتعصب، فهو يستطيع ومن موقع التجديد أن يطرح الإسلام بما ينسجم مع روح العصر، كما يرد على دعاوى الأعداء بحجج دامغة لا تقبل الشك، مثلما يستطيع أن يطرح بقوة قيم الإسلام وأحكامه التي تعالج مشاكل الناس، بعيداً عن المزايدات التي تنادي بها بعض الدول الآن من أمثال حقوق الإنسان.

- الأصل الثابت والمتجدد:

إن أمور العقيدة ومفاهيمها من الأمور الثابتة التي لا تخضع للنظرة المتجددة، ولا تزيدها النظرة المتجددة إلا رسوخاً، كما إن العبادة باعتبارها تمثل التعبير عن الجزء الثابت من الشخصية، فلا يُتوقع لها أن تخضع لأي تغيير كالصلاة والصوم وكذا سائر العبادات، إلا في مقدمات بعض العبادات من أمثال الحج، وتوفير مقدمات الراحة من حيث النقل والسكن والطعام؛ فتتوسع بتوافرها فرص الاستطاعة لكثير من المؤمنين ممن لم تتوافر لهم إمكانية أداء الفريضة بغير هذه الوسائل.

- نماذج تطبيقية من المسائل بين الأصالة والتجديد:

1. البرهان لإثبات الحقيقة

الأصل في أي استدلال صحيح أن يعتمد البرهان على صحة مدعى معين خصوصاً في مسائل العقيدة، ولعل من جملة ما يميز الدين عن غيره أنه يرفض التقليد في الشأن العقدي، وأراد للعقل أن يأخذ حصته الكافية من الاقتناع حتى يصل إلى حد اليقين، كما أراد الدين الإسلامي الحنيف، أن لا ينغلق المسلم أمام دعاوى الآخرين بل الاستماع إليهم والتدقيق في أدلتهم وبرهانهم: ((وَقَالُوا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)).(1)

وفي الوقت الذي طرح القرآن الكريم أصالة اعتماد البرهان في إثبات الحقيقة يطرح أصالة الاطلاع على الرأي الآخر، وما يحمل من برهان في سياق مدعاه من الموقع الذي يعزز فيه روح الثقة، والثبات بالعقيدة، والانفتاح الواعي على الرأي الآخر الذي يطالبه البرهان في أي فكرة يدّعيها، أو أي تهمة يوجهها إلى الفكر الإسلامي بذلك يكتسب الإسلامي وعياً بجدارة فكرته، ووعياً بعجز المدعى الخالي من الدليل، (العلم)، و(احترام الرأي)، و(حرية التفكير)، و(الاستدلال) مبان إسلامية، أما اتخاذها شعارات جديدة تنطوي على أدلة تتنافى ومفاهيم العقيدة وتوظيفها لزعة ثقة المسلمين بعقيدتهم، فهذا هو الذي يرفضه الإسلام، وهذا ليس لأنه جديد، إنما الجديد فيه هو التقنن في استخدامه لحرب الإسلام، وإلا فإن كل جديد يخضع للاستدلال الصحيح تعميق لأصالة الفكرة، وخدمة العقيدة:

((أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ)).(2)

(1) البقرة 111

(2) الأنبياء 24

يقول الله (سبحانه وتعالى) لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، قل لهؤلاء المتخذين الألوهة من دون الله: هاتوا برهانكم على دعواكم، فإن الدعوى التي لا دليل عليها لا تسمع، ولا تجوز عقلاً أن يُرَكَّن إليها، والذي استند إليه في طلب الدليل أن الكتب السماوية النازلة من عند الله (سبحانه وتعالى)، لا توافقكم على ما ادعيتم بل تخالفكم فيه، هذا القرآن وهو ذكر من معي، وهذه سائر الكتب كالنوراة والإنجيل وغيرهما، وهي ذكر من قبل، وتذكر انحصار الألوهية فيه تعالى وحده ووجوب عبادته.

بل أكثرهم لا يعلمون الحق، فهم معرضون عن خطاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإشارة إلى أن أكثرهم لا يميزون الحق من الباطل، فليسوا من أهل التمييز الذين يتبعون الدليل، لذا فهم معرضون عن الحق واتباعه (1):

((وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)). (2)

((أَمَّنْ بَيِّدَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)). (3)

((وَنَزَّ عَنَّا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)). (4)

2. كرامة الإنسان

((وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)).

المستفاد من ((كرمنا))، هو الإشارة إلى ما نصح الله (سبحانه وتعالى) الإنسان من مجموعة من الخصوصيات الذاتية، وحيث إن الإنسان روح وعقل وجسد وسلوك فإن دائرة التكريم شملت كل هذه الجوانب، وإن المساس بها يتنافى مع أصل التكريم، إلا في الحالات التي يكون الإنسان قد خرج فيها من الاستقامة إلى الانحراف، عندئذ يتجمد هذا الأصل، ويتم التفاعل معه على أساس آخر سواء أكان هذا الانحراف على المستوى الفردي مع نفسه، أو الاجتماعي مع الآخرين.

(1) السيد محمد حسين الطباطبائي الميزان، م 14، ص 274

(2) المؤمنون 117

(3) النحل 64

(وقد يخطر في البال أن لا يكون هذا الإعلان عن تكريم الله لبني آدم مجرد حديث عما أفاض الله على الإنسان من ألطاف التكريم التكويني في طبيعته، ودوره في الحياة، بل يتعداه إلى الخط التشريعي الذي يوحي بكرامة الإنسان كأصل من أصول النظرية القرآنية للإنسان بحيث تؤكد كل تصرف يدل على كرامته، وترفض كل ما يؤدي إلى إهانته من موقعه الإنساني بعيداً عن العناوين الثانوية التي قد تجيز إهانته والتعدي على حرمة على أساس بعض الأوضاع، أو الصفات، أو الانتماءات المنحرفة عن خط الله؛ فتكون لنا من خلال ذلك قاعدة شرعية، هي احترام الإنسان في نفسه، وماله، وعرضه، كأصل إسلامي فقهي، لا يجوز الخروج عنه إلا بعنوان آخر مُخصص له). (1)

ولنتساءل هنا عن بعض الممارسات الجديدة المتعلقة بحق الإنسان على كل جوانب شخصيته، فعموم الرياضة البدنية تؤكد أصالة الاهتمام بالبدن، وتحفظ له قوته، وقد جاء في الحديث الشريف:

(علموا أولادكم السباحة والرمية وركوب الخيل)

غير أن الجديد أيضاً أن يتعرض الإنسان وهو يمارس نشاطاً رياضياً لشتى أنواع المخاطر التي تصل أحياناً إلى حد الموت! فحين يقف الشارع المقدس أمام مثل هذه الممارسات؛ ليحرّمها مصداقاً (لتكريمه) فهل إن ذلك إلغاء للتجديد أم إنه تأكيد للأصالة؟

والمريض حيث يتعرض لعاهة معينة سواء في مرحلة متقدمة من العمر، أم في سني حياته المبكرة (المنغولية مثلاً)، وحتى إذا اكتشف في المرحلة الجنينية، ونجد الشريعة تقف بحزم في تحريم قتله، وتحت على ممارسة مختلف السبل لشفائه، أو الحيلولة دون تعرضه لأصل الحالة المرضية، وهذه هي الأخرى مصداق لأصالة تكريم الإنسان، ورفض الضغط الذي يمارس عليه من قبل أي جهات حاكمة بسبب عقدي، أو سياسي كل ذلك تأكيد لنفس الحقيقة (كرامة الإنسان)، فلو ألقينا نظرة موضوعية على ما جرى، ويجري على الساحة الإنسانية اليوم تحت شعارات جديدة: حقوق الإنسان، حرية التعبير عن الرأي، التطهير العرقي، وإذا ما استحضرنّا ما يمارس تحت طائلة هذه العناوين من جرائم واعتداءات، نجد أن أهم ما يلفت الانتباه هو فقدانها لأصالة (تكريم الإنسان).

3- مقياس التفاضل بين الناس

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)). (1)

كل مجتمع له معياره في التقييم يتفاضل بموجبه أفراده بعضهم عن البعض الآخر، واختلف الإسلام عن غيره من الأنظمة من زاوية التقييم، فهو لا يفاضل بين الناس على أساس العنصر، أو اللغة، أو الطبقة المادية، أو الانحدار العائلي، بل اتخذ من التقوى والعلم والعمل والجهاد مقياساً للتقييم، وإذا كانت بعض الأنظمة الوضعية على مستوى الشعار (المقياس النظري) تبدو متشابهة مع ما يطرح في الإسلام غير أن التجربة العملية أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنها لم تكن كذلك مثال ذلك: أميركا التي ترفع لواء الديمقراطية المعاصرة، وتتكلم عن حقوق الإنسان، لكن شعبها يعاني من عقدة التمييز العنصري، كما يعاني العالم من سياستها الخارجية القائمة على أساس ابتزاز خيرات الشعوب للصالح الأميركي!!

وفرنسا (داعية الحرية) و(محطمة سجن الباستيل) والمدعية هي الأخرى للعدل والمساواة تشتت أن يجيد سكرتير الأمم المتحدة اللغة الفرنسية، وإلا فإنها تستخدم صلاحيتها بحق الرفض (الفيثو)!!

هذا هو بعض من (الجديد)، الذي يطرح من قبل أكثر دول العالم ادعاءً لحقوق الإنسان واحتراماً له؟ الإسلام يطرح شعاره بعدم التمييز العنصري، ويمارس ذلك الشعار في واقعه منذ شوطه الأول وإلى الآن:

(لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)

فسلطان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي تقتزن أسماؤهم بتجسيد ذلك المفهوم منذ حمل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لواء الإسلام.

4. التعامل مع المرأة

لقد نظر الإسلام إلى المرأة على مستوى خلقتها، أو استقلال شخصيتها، أو تكاليفها، أو حقوقها، أو جزائها نظرة عادلة تراعي كل ما لديها من خصوصيات تكوينية، وقد حفظ لها بناءً على ذلك دورها في بناء الأسرة والمجتمع، وأخذ لها حقوقها الشخصية والزوجية وصيانة كرامتها، والعالم المعاصر عموماً والغربي خاصة يطرح (الجديد) في عالم المرأة من خلال: حرمة المرأة، جمالية المرأة، أنوثة المرأة، حيث أخذت هذه الشعارات طريقها إلى الواقع الغربي بالشكل الذي أودى بالمرأة إلى مستوى متدنٍ مسّ كرامتها في الصميم، فالإسلام ينادي باحترام المرأة، وصيانة كرامتها من الانتهاك، ويلزمها بالحجاب؛ ليحفظ لها عفتها، ويصون المجتمع من التفكك والانحدار مثلما يحرم أي انتهاك لحقوقها المشروعة، فالإسلام

يواجه كل محاولة لابتزاز المرأة، والتلاعب بحقوقها باسم العادات القبلية، أو الأعراف الاجتماعية، أو عقدة (الهيمنة العرفية)، وقد وفر لها كل ما من شأنه أن يحفظ لها حقوقها المشروعة.

(1) الروم 21

5. العلاقة الزوجية

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)) (1)

لقد تثبت الإسلام أساس العلاقة الزوجية، ونظمها بالشكل الذي يحفظ لكل من الزوجين حقوقه، وأعطى لكل واحد منهما الحق الكامل في اختيار شريك حياته، لكن (الجديد) في عالمنا المعاصر يطرح الظواهر الاتية:

1. ظاهرة الأخدان FRIENDSHIP

- صديقة رجل GIRL FRIEND

- صديق امرأة BOY FRIEND

2. مشتهي المماثل Homosexual

3. زواج الأب من ابنته أو ابنة زوجته

كما يطرح (الجديد) أنواعاً أخرى مختلفة من الانحرافات تحت يافطة الحقوق الجنسية، فيما تؤكد سجلات الشرطة والطب ما آلت إليه هذه الممارسات من أضرار فادحة على الأسرة والمجتمع، ناهيك عن معدلات الخيانة بين الزوجين، وارتفاع منسوب الطلاق لأسباب تافهة، ومن هذه الظواهر الشاذة ظاهرة (الأخدان) (2).

تنتشر اليوم ظاهرة الأخدان (صديق الرجل وصديق المرأة على أساس الممارسة الجنسية) في مجتمعات الغرب بشكل مخجل، بحيث تعرضت العلاقة الزوجية إلى الانتهاك، وهددت بنية الأسرة، فلم تعد للزوج بنظر زوجته، أو للزوجة بنظر زوجها حرمة تصان أو قيمة معنوية تحفظ؛ لأن كلا منهما يُبرم علاقة مع الجنس الآخر بعنوان (خدن) الصديق، ويتعاطى من خلال تلك العلاقة الممارسة الجنسية بشكلها البشع، ومثل هذه العلاقة كانت قد حدثت في الجاهلية القديمة التي سبقت ظهور الإسلام، غير أن الإسلام الحنيف وقف أمامها بحزم، وصان الأسرة من الهدم، وحفظ العلاقة الزوجية في إطار العفة والوفاء والطهارة، فقد جاء في كتاب الله العزيز:

((.. ولا متخذات أخدان)) (3)

ولا متخذين أخدان...)) (4)

(1) الحجرات 13

(2) خدن: الخدن والخدين: الصديق، والمحكم: صاحبُ المحدث، والجمع

أخدانٌ وخُدناء، والخدن والخدين: الذي يخادتك فيكون معك في كل أمر

ظاهر وباطن، وخذن الجارية: محدثها، وكانوا في الجاهلية لا يمتنعون من خدن تحدث الجارية فجاء الإسلام يهدمه، وفي حديث علي (عليه السلام): إن احتاج إلى معونتهم فسرّ خليلٍ وألام خدين، العلامة ابن منظور، لسان العرب ، م13، ص 139.

(3) النساء 25

(4) المائدة 5

6. تحريم المسكر

((يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا)).(1)

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ)).(2)

تتحدث الآيات السابقة تخصيصاً عن الخمر من المسكرات، وكيف حدد القرآن الكريم حكم الحرمة، وأشار إلى بعض مفسده وأضراره، فيما يطرح في عالم اليوم الخمر على أنه ظاهرة مقرونة بالتجديد، فتنشر في الأجواء الاجتماعية المختلفة، ويحاول البعض أن يضيف عليها طابعاً صحياً وإن قيدها بكمية معينة! بينما تثبت المراجع الطبية المعتبرة منها، وحتى العادية حقيقة أنها حالة تسمم سواء بشكل مزمن أو حاد Acute and Chronic Alcoholism، وترتبط كل الإحصاءات الطبية بين تعاطي الكحول وأمراض الكبد، القلب، المعدة، عدا الأمراض النفسية والعقلية، وأما سجلات الشرطة فقد غصت بشواهد الإجرام والحوادث بسبب الخمر، ويكشف عن كل ذلك دليل آخر، أن أول إجراء تقوم به الشرطة في كل حادث (سيارة)، مثلاً التثبت من أن سائق السيارة مخمور أم لا؟ وهناك الكثير من الشواهد الأخرى التي تؤكد أن حركة التجديد تأكيد للأصالة، وأن الأصالة ممتدة لكل آفاق التجديد ولا تناقض بينهما.

- أهمية التنمية في مرحلة الشباب

مهما اختلفت مدارس علم النفس حول الاتجاه العام في التربية، وما تستهدفه في تنمية الشباب فهي تلعب دوراً أساسياً في واقعه، ومستقبل حياته (3) وإذا كانت المراحل السابقة للمراهقة تشهد بعض التحولات من سنة إلى أخرى، فإن مرحلة الشباب في الأعم الأغلب تشير إلى التحولات التي سرعان ما تؤول إلى الاستقرار بالشخصية، يضاف إلى ذلك أن القاعدة التي تؤسس بمثل هذه المرحلة يمكن أن يشاد عليها صرح الشخصية بكل ما فيه من أفكار، وعواطف، وسلوك، وتكون منسجمة مع تلك القاعدة، فإذا ما بُنيت على العقيدة الإسلامية الحقّة، فإن بناء الشخصية سيكون بلا شك بناءً إسلامياً متكاملًا يتكفل عملية التطوير المطردة في مراحل العمر اللاحقة؛ لذا (يتوجب العمل على نشر الثقافة الدينية بين المراهقين مع

الاستعانة بعلماء الدين في مختلف مجالات التوعية مثل مشاكل الشباب وتنظيم الأسرة... (4)

- (1) البقرة 219
- (2) المائدة 90-91
- (3) من توصيات المؤتمر الأول للصحة النفسية المنعقد في القاهرة في كانون الأول عام 1970.
- (4) دكتور حامد عبد السلام زهران علم النفس النمو ص 397

- ثقافة التنمية

إنها ثقافة البناء التي تستهدف في خطواتها الأولى تعميق الجانب العقائدي لدى الشباب، وتوطيد العلاقة الروحية التي تشكل واقعاً ذاتياً، ورقابة داخلية في شخصيتهم، كما إنها تجعله في إحساس دائم أنه يتعين نظر الله (سبحانه وتعالى)، في كل خطوة، أو إحساس، أو موقف، ولا بد من تثبيت حقيقة: أن العقيدة هي المائز القوي من حيث الاتجاه بين إنسان وآخر، وهي المقياس الرتبى في مقام التقويم، وهي التي تتكفل ببناء الإنسان ذاتياً ليأخذ ما يحتاجه من المفاهيم، كما تدفعه لتجسيد الأحكام الشرعية في مقام التعامل في مختلف دوائره مع الله (تبارك وتعالى)، أو مع نفسه ومجتمعه.. إن هذه الحقيقة أثارها القرآن الكريم في الكثير من الآيات القرآنية إذ أكد حقيقة الترابط بين العقيدة بالله (جل وعلا)، وبين الاستقامة في الحياة: ((إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ....)). (1)

ولا ننكر إمكانية بناء الشخصية في مراحل العمر المختلفة، كما أثبت الواقع ذلك لكن مرحلة الشباب فيها ميزتان أساسيتان الميزة الأولى: أنها تبدأ معه من نقطة الصفر في طريق الحياة، فهو حين يعانق العقيدة من هذا الموقع لم يكن معبأً بفكر آخر متجذراً في نفسه بحيث يشكل عائقاً، أو يمازح بشكل شعوري أو لا شعوري عقيدته الحقّة؛ مما يتطلب منه حرصاً استثنائياً للتخلص من تلك الشوائب، وإعادة النظر في كل عاداته وسلوكه على هدي العقيدة الجديدة التي آمن بها في مرحلة لاحقة.

الميزة الثانية: أن العطاء العقائدي حين يبدأ مع مسيرة الإنسان وهو في أول الطريق، لاشك أنه ينعكس عليه في شتى مجالات حياته، وبمختلف مراحل نموه، فهو إذن أوسع أفقاً وأخصب عطاءً.

- وعي الوسط الاجتماعي

لا يمكن للشباب أن يتعامل مع كل وسط ما لم يعرّف مفرداته السلوكية خصوصاً عندما يكون الوسط غير إسلامي؛ لكي يتحدد على ضوء ذلك تعامله مع كل مفردة يتعايش معها حسبما يتطلب الأمر ذلك ويفرض إذا استدعت الحاجة، ويقبل إذا لم يجد ثمة ما ينافي العقيدة.

إن الوسط الإسلامي لا إسلامي باجماله، وهذا لابد أن يؤدّ عنده الإحساس بعمق المسؤولية في رفض الإجمال، لكن ذلك لا يمنع بل يستلزم وجود الكثير من المفردات التي تنسجم مع الإسلام، وتقرب من الشريعة. إن مثل هذا الوعي سواء للعادة، أو الشعار العلمي، أو اللافتة السياسية، أو العرف والتقليد الأكاديمي، أو الممارسة الفنية، أو الهواية الرياضية يجعله أمام موقف واضح بالتعامل من دون أي ازدواج أو معصية - والعياذ بالله - وما لم يتسنّ له هذا الوعي، فإن سلوكه سيكون عرضة للمفارقة أو الانحراف.

(1) فصلت 30

- ثقافة الدفاع عن الإسلام
هناك الكثير من المفردات الثقافية الإسلامية يحتاج الشاب إلى التعرف عليها، وإن لم يكن بحاجة إليها على مستوى التطبيق السلوكي، لكن أهميتها تستمد مما يثار حولها من اتهامات، وما يثار من خلالها بوجه الإسلام من هجوم، مثال ذلك:
- لماذا تعدد الزوجات في الإسلام؟
- لماذا للذكر مثل حظ الأنثيين؟
- لماذا الحجاب؟
- لماذا حرمة الربا؟
- لماذا حرمة الغناء؟
- لماذا حرمة شرب الخمر؟
ثم تمتد الحاجة كلما زادت دائرة تعامل الشاب في الأوساط الاجتماعية، حتى تصل إلى حد التساؤل:
- هل في الإسلام اقتصاد؟
- هل في الإسلام سياسة؟
- هل هناك نظرية في الأسرة؟
إن مثل هذه الثقافة تسهم في ممارسة عملية الدفاع عن الشريعة المقدسة، وهي مطلوبة من الشباب، وإن كانت بالنسبة لمرحلة نموه تأتي بالدرجة الثانية بعد ثقافة البناء.

- ثقافة التبليغ والدعوة
ومن خلال توافر الشباب على الفكر الإسلامي إلى حد الأصالة، ومن خلال فهمه لطريقة تفكير الإنسان الآخر غير المسلم، أو غير الإسلامي، ومن خلال إجادته للغة الإنسان الآخر، وما يستحوذ على اهتمامه من خلال هذه العناصر يستطيع أن يمارس دوره كمبلغ في سبيل الله.
إن الخطاب الإسلامي الذي يتوجه إلى أي إنسان يعيش نمطاً من التقليد، أو يتداول لغة معينة، أو يتعبأ باهتمامات فكرية خاصة لابد أن يأخذ بنظر الاعتبار كل هذه الحثيات، وإلا فسيكون خطاباً نظرياً لا يقوى على إيصال الحقيقة للمخاطبين بها،

والمفروض بحامل الفكر أن يجيد فن الطرح من خلال فهمه للآخر، والتعرف على طريقة تفكيره؛ لأنه لم يزل يفكر بطريقته الخاصة، ويخضع لقناعاته المسبقة.

- الخاتمة

إن عملية التنمية التي يحتاجها الشباب ليست طريقاً وسطاً بين الأصالة والتجديد إنما هي الأصالة بعينها من منظور مبدئي، كما إنها التجديد ذاته من زاوية واقعية، فما يثبتته الواقع من صلاح في المعيار القيمي الإنساني يجد له أساساً في الشريعة ولو بخطها العام، وإذا كان الشاب يعمق من نظراته المبدئية لكل مفهوم عقائدي، ولكل مفردة عبادية، ويتسلح بالأفكار والنظريات الإسلامية في بناء شخصيته فإن تطلّعه لكل جديد في إطار ما تسمح به الشريعة الإسلامية يجعله يعيش الإسلام الواقعي الذي يمثل (عمق الأصالة) وروعة (التجديد).

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إبراهيم الجعفري

شعبان 1417 هـ

18-12-1996 م